داليتا الحصري وشوقي

دراسة - تحليل - موازنة

د/ محمد عارف حسين

أولا : دالية الحصري :

تعريف بالشاعر : الحصري (المتوفى : ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) .

هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المقرىء الضرير القيروانى ، الملقب بالحصرى المتوفى عام ٤٨٨ هـ من شعراء القيروان المشهورين فى القرن الخامس ، وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » المتوفى عام ٤٥٣ هـ .

القصيدة

ياليل الصب متى غده	أقيام الساعة موعده ؟
رقد السمار وأرقه	أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذى هيف	خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركا	فى النوم فعز تصيده
وكفى عجبا أنى قنص	للسرب سبانى أغيده
صنم للفتنة منتصب	أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى من فمه	سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفا	وكأن نعاسا يغمده

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الأول، مطبعة الأمانة ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

فيريق دم العشاق به ... والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت ... عيناه ولم تقتل يده
يا من جحدت عيناه دمى ... وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى ... فعلام جفونك تجحده
إنى لأعيذك من قتلى ... وأظنك لا تتعمده
بالله هب المشتاق كرى ... فلعل خيالك يسعده
ماضرك لو داويت ضنى ... صب يدنيك وتبعده!
لم يبق هواك له رمقا ... فليبك عليه عوده
وغداً يقضى أو بعد غد ... هل من نظر يتزوده؟
يا أهل الشوق لنا شوق ... بالدمع يفيض مورده
يهوى المشتاق لقاءكمو ... وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه ... لولا الأيام تنكده!
بالبين وبالهجران فيا ... لفؤادى كيف تجلده؟!

دراسة وتحليل

قصيدة أبي الحسن هذه التي نحن بصدد دراستها وتحليلها وموازنتها بقصيدة شوقي التي سيأتي الحديث عنها — مشهورة، وهي من القصائد السائرة وتمتاز بطولها، وقد نظمها في مدح أبي عبدالرحمن محمد الوزير، الذي وزر لملوك الطوائف في مرسية بالأندلس.

وأبياتها الغزلية هي موضع عناية النقاد، وعددها اثنان وعشرون بيتا وهي محل دراستنا وهي التي سيوازن بينها وبين قصيدة شوقي. أما أبياتها في المدح فتبلغ سبعة وسبعين بيتا، وفيها يصف الوزير بالسؤدد وبعد الهمة وبالأدب والعلم والكرم، ويطلب منه نداه ويشكو إليه من الدهر، ويطلب منه أن يصله، ويعتذر إليه من وشايات خصومه عنده.

وفي آخرها يقول الشاعر:

وأقبل غيداء محبرة لفظا كالدر منضده
لو أن جميلا أنشدها في الحي لذابت خرده
أهديت الشعر وعلى شحط وندالك قريب مورده
ما أجود شعري في خبب والشعر قليل جيده
لولاك تساوى بهرجه في سوق الصرف وعسجده

وهذا القسم الغزلي من القصيدة عارضه كثيرون من الشعراء المحدثين، وعلى رأسهم شاعرنا أحمد شوقي واسماعيل صبري، وعلي الدين يكن والأمير شكيب أرسلان، وجميل صدقي الزهاوي، وبشارة الخوري، ورشيد أيوب ومسعود سماحة، وفوزي المعلوف ...

وعارض القصيدة كلها من القدماء كثيرون منهم « ابن الأبار الأندلسى » المتوفى سنة ٦٥٨ هـ والأرجانى المتوفى سنة ٥٢٣ ، وغيرهما .

° ° °

الخيـــال :

(١ — ٣) فى الأبيات الثلاثة الأولى يتحدث الحصرى عن طول الليل على المحب المتيم ، ويصف طوله ، وكأنه ليس له نهاية ، وليس له غد مشرق ، بل كأن هذا الليل لطوله موصول بنهاية عمر الحياة وبقيام الساعة . ولا يطول ليل المحب عليه إلا إذا كان مؤرق الجفن ساهر العينين ، حزناً على فراق حبيبه وأسفا عليه ، وهو لسهره وأرقه صار صديق النجوم يرعاها وترعاه ، بل تبكيه وترق له .

وفى التعبير عن طول الليل استطاع الشـــاعر أن يستخدم كل ما يسعفه فى التعبير عن هذا الطول من مبالغة وخيال ، وقد أسعفته اللغة فى التعبير عن ذلك ، وأول شىء استخدمه هذا الاستفهام التعجبى : « يا ليل الصب متى غده؟ » وكأن الشاعر لما طال عليه ليله وسهره وأرقه بدأ يسأل ويستفهم عن غد هذا الليل ، وكأن الليل لطوله أصبح بلا غد . ولم يكتف الشاعر فى التعبير عن طول ليل المحب بهذا الاستفهام ، بل شفعه باستفهام آخر مؤداه أنه إذا كان ليل المحب المتيم طويلا لدرجة يظن معها أنه بلا غـــد ، فهل موعد هذا الغد هو قيام الساعة ! . وفى ربط الشاعر بين ظهور هذا الغد وقيام الساعة ما فيه من التعبير البارع والخيال المبـــدع عن طول الليل الذى يعانيه المحب ما لا مطمع بعده لشاعر مجيد .

أما البيت الثانى : « رقد السمار وأرقه ... » فقد اشتمل على صورتين جميلتين : صورة السمار وقد ناموا ، وصورة المتيم الغزل وقد سهر وأرق .

ولم يكتف الشاعر بذلك ، بل ذكر سبب الأرق وعلته وهو الأسف المردد للفراق ... « أسف للبين يردده » .

والبيت الثالث : اشتمل على صورة أدبية رائعة رسمها خيال مبدع ، وهى قوله : « فبكاه النجم ورق له ... » فالشاعر — هنا — أراد أن يقول : إن المحب كثير السهر دائم الأرق ، وهو لذلك كله صار صديقاً للنجم يبثه شكواه ، ويناجيه بما يعتمـــل فى نفسه ، لدرجة جعلت النجم يرق لحاله ويرثى لما صار إليه أمره بل يبكيه ويعطف عليه . وهنا نجد الشاعر قد خلع على النجم روحاً وحياة ، حين جعله يحس ويشعر ، بل يتألم ويبكى لهذا المحب الذى أضناه الحب وجفاه الحبيب !

ووصف طول الليل من المعانى القديمة التى طرقها الشعراء مما يجعل هذا المعنى لا جدة فيه ولا ابتكار .

فها هو ذا امرؤ القيس يصف طول الليل بقوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصباح منك بأمثل

ولكن الحصرى عبر عن طوله بطريقة تخالف طريقة امرىء القيس ، وفرق شاسع بين الطريقتين ، هو الفرق بين الطبـــع والصنعة ، والبداوة والحضارة فى الشعر والسذاجة والعمق فى المعنى الشعرى ، فبيت الحصرى من أجل ذلك يمتاز على بيت امرىء القيس بالمبالغة والعمق والخيال ، فوق ما يمتاز به من عذوبة الأسلوب ، ورقة الألفاظ بالإضافة إلى هذا الاستفهام البليغ فى قوله « متى غده ؟ » وفى الشطر الثانى كله .

كذلك فإن أرق المحب وسهره من أجل تذكره الفراق وبكاءه لبين أحبابه ، معنى قديم نظم فيه الشعراء فى مختلف العصور ، وقال فيه المتنبى : —

أرق على أرق ومثلى يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

ولكن بيت الحصرى أبلغ لاشتماله على صورتين مختلفتين : صورة السمار وقد ناموا ، وصورة المتيم الولهان وقد سهر وأرق ، واشتماله — أيضاً — على سبب الأرق وعلته ، وهو الأسف المردد من أجل الفراق ، وبيت المتنبي خال من هذا كله ، ولذا كان بيت الحصرى أرفع معنى ، وأعمق فكرة ، وله فوق ذلك عذوبة الأسلوب وموسيقى الألفاظ وجمال الصور .

وصداقة النجوم أو الليل للمحبين المؤرقين لطول سهرهم وسهادهم — معنى قديم — أيضاً — ولكن الحصرى جوده واختصره ، وأداه فى أسلوب جميل .

(٤ — ٦) فى هذه الأبيات الثلاثة يتحدث الشاعر عن كلفه الشديد بحبيبه الجميل الذى يشرده ويبعده عنه خوفه من الوشاة ، وهو - أى الحب - لبعد حبيبه عنه يتمنى رؤيته ، ولو مناماً بزيارة طيفه له ، ولذا فهو يتحايل لذلك بالنوم ، لعله يسعده برؤياه ، ولكنه مع ذلك كله لم يحظ بشىء ، وإذا كان هذا الحب قد فشل فى تصيد طيف حبيبه بالشرك الذى نصبه له — وهو النوم — فانه — وهو الصياد الماهر — قد وقع قنصاً وفريسة لهذا الأغيد الذى سباه وأسره ، وهو يسير فى مجموعة من أترابه وأقرانه العذارى الجميلات

وقد حفلت هذه الأبيات الثلاثة بالصور الجميلة ، والخيالات الرفيعة والمعانى الدقيقة : -

كلف بغزال ذى هيف خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركا فى النوم ... ...
... أنى قنص للسرب سباني أغيده

فى الصورة الأولى : جعل الشاعر حبيبه الذى يبعد عنه خوف الوشاة

غزالا نافراً شارداً وقد أكد هذه الصورة الخيالية كلمة « يشرده » ، فالشرود والنفار من سمات الغزال ، وذلك إمعاناً منه فى رسم تلك الصورة الخيالية .

وفى الصورة الثانية : جعل الشاعر النوم شركا تنصبه عيناه لتوقع به طيف الحبيب حتى تستطيعا أن تسعدا برؤياه .

وهكذا تخيل الشاعر العينين انساناً ينصب شراكه بغية الايقاع بصيد ثمين ، وقد جعل النوم شركا تنصبه العينان ، فمن طريقه - أى النـــوم - تستطيع العينان أن تريا طيف الحبيب ، وأكد هذه الصورة الخيالية قوله :

« ... فهز تصيده » وكأن الطيف صيد حقيقى !

وفى الصورة الثالثة : جعل نفسه صيداً قد أسره جمال الحبيب وهـــو يمشى بين أقرانه ولداته ، وبذلك صار الصائد القنص صيـــداً وفريسة ، وصيدا وفريسة لمن ! لمن ذهب يقنصه ويصيده وهو حبيبه ، وفى ذلك مدعاة للعجب والدهشة !

وليقرأ القارىء البيت السادس المشتمل على هـذه الصـورة البديعـة ، وليتخيل ماشاء له التخيل صورة صائد حاول أن يوقع بصيد ثمين ، وهو يمشى فى قطيع من بنى جنسه ، فاذا بهذا الصيد يهجم على الصائد ويفتك به ويصير صيداً فى يده .

(٧) فى البيت السابع يصف الحصرى حبيبه بأنه تمثـــال مجسم للفتنة والجمال ، وأنه - أى الشاعر المحب - واقف أمام هذا التمثال محباً لا عابدا وقوله « أهواه ولا أتعبده » احتراس بليغ .

ولكن الشاعر قد أخطأ التوفيق حين وصف حبيبه بأنه صنم منتصب وذلك لثقل هذه الكلمة فى اللغة الشعرية .

(٨ -- ١١) فى هذه الأبيات يصف الحصرى حبيبه بعذوبة الريق وفتور اللحظ وعربدته وبسحر الطرف وفتنته حتى لكأنه سيف قد خرج من غمده يفتك بالمحبين ويريق دماءهم ، وويل لهذا الحبيب ممن يطلبون منه ثأرهم لكثرة ما سفك من دماء محبيه ! ثم يستدرك الحصرى فيقول : وعلام يطلبون الثأر منه فما عليه من جناح ، ولا ذنب لمن قتلت عيناه ، ولم تقتل يده ، لأنه لم يحمل سلاحا ، ولم يسفك دماً !

فى هذه الأبيات صور شعرية رائعة أنتجها الخيال المبدع للشاعر :

... الخمر جنى فيه
سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفا وكأن نعاساً يغمده

فالصورة الأولى تعتمد على التشبيه ، فقد جعل ريق حبيبه كالخمر على التشبيه المقلوب وكأنه يريد أن يقول : إن ريق فمها يسكر كما يسكر الخمر ، وذلك للذة والنشوة التى تعتريه حين يقبلها وينهل من هذا المورد العذب الجميل ، كما تعترى شارب الخمر تلك اللذة والنشوة التى تعترى الشاربين لها .

والصورة الثانية : صورة رائعة حقا حيث جعل اللحظ ، وكأنه إنسان سكران معربد يلحق أذاه بالناس ، وهذه العربدة التى يلحقها اللحظ بالمحب ، هى تقييده المحب باشراكه التى ينصبها له واستيلاؤه بسحره وفتنته على قلب هذا المحب ، وما هذه العربدة ياصاح ؟ إنها الأشراك التى يقيدك بها اللحظ وأنت تنهل من ورده العذب الجميل(١) .

والصورة ضمت خيالا رائعاً حيث جعل الشاعر نظرات الحبيب الساحرة الفاتنة التى يصوبها نحوه ، وكأنها سيف مصلت يحاول سفك دمه ، كما جعل

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ١١٧ .

النوم بمثابة غمده الذى يحول بينه وبين إراقة دم المحبين ... هذه الصورة الخيالية قد استهدف الشاعر من ورائها وصف حبيبه بسحر العينين وفتنتهما ولكنه لم يصل إلى هذا المعنى عن طريق الحقيقة ، بل عن طريق هذه الصورة الرائعة حقاً .

* * *

(١٢ — ١٤) — فى هذه الأبيات يصور الشاعر حبيبه السافك لدم هذا المحب المتيم وقد جمدت عيناه دم من قتلت ، واعترف خداه بدم المقتول لتوردهما وحمرتهما وامتلائهما بالدم المسفوك ومع ذلك فالمحب المقتول يبالغ فى التأدب مع الحبيب القاتل ، فيعيذه من جريرة القتل ومن تعمده ! .

وهذه الأبيات مشتملة على معنى واحد متصل بحكم دقيق سيق فى أبرع صورة ، وأروع خيال . وإن كان فى قوله :

« إنى لأعيذك من قتلى وأظنك لا تتعمـــده »

— خيال فقهاء لا خيال شعراء(١) .

(١٥ — ١٨) — فى هذه الأبيات يطلب الحصرى من حبيبه أن يهب له النوم ليرى خياله فى الأحلام لعله يسعد برؤياه ، ويكون فى ذلك دواء لضناه وشفاء لسقمه الذى بلغ الغاية حتى أصبح شبحاً مما أصابه فى الحب ، وعوده لا شك أنهم فى غدهم باكوه أو بعد غد ، وهو يستعطف حبيبه أن ينظر إليه عله يتزود بهذه النظرة فى حياته الأخرى .

وهذه المعانى قد صبت فى ألفاظ جميلة ، وأساليب لطيفة ، وعبارات بليغة

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ١١٩ .

مثل قوله : « بالله هب المشتاق كرى ، و« ماضرك لو داويت ضنى صب ... » و« يدنيك وتبعده ، و« هل من نظر يتزوده » .

(١٩ — ٢٢) — فى هذه الأبيات الأخيرة ينهى الشاعر مقطعه الغزلى بهذا الاستعطاف الرائع ، فيكشف لحبيبه أنه غص بدمعه الكثير الذى فاضت به عيونه ، وفيه يشكو الزمان وصروفه التى تحول بينه وبين لقاء من يشتاق لقاءه ، لأنه لاشىء أحلى ولا أعذب من وصل الأحباب إلا أن الأيام لا تمكن الأحباب من الوصال الدائم بل كثيرا ماتكدره بالبعد وبالهجران . فياعجبا لتجلد فؤاده ! ! .

المعانى والأفكار :

إذا نظرنا إلى المعانى والأفكار العامة التى اشتملت عليها هذه القطعة الغزلية نجدها تلك المعانى التى نعثر عليها فى أغلب القصائد الغزلية ، كالحديث عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخمر الرضاب ، وسيف اللحظ ، وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء المحب .

وقد أجاد الشاعر فى التعبير عن هذه المعانى إجادة تامة ، وفى تصويرها فى صور رائعة كما مر فى الدراسة والتحليل ، تعبيراً وتصويراً يشهدان له بالبراعة والتفوق ، من مثل قوله :

ينضو من مقلته سيفا وكأن نعاسا يغمده

وما أبرع استعطافه حبيبه إذ يقول :

لم يبق هواك له رمقا فليبك عليه عوده

وغدا يقضى أو بعد غد هل من نظر يتزوده

ولكن شاعرنا قد اعتراه بعض الضعف فى التعبير عن هذه المعانى من مثل قوله :

صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده

وكذلك قوله :

ماأحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكـــده
بالبين وبالهجران فيا لفؤادى كيف تجلده

وقوله :

إنى لأعيـــذك من قتلى وأظنك لا تتعمـــده

الوحدة العضوية :

نحن نعلم أن قصيدة الحصرى قد اشتملت على غزل ومدح ، وهى بهذا التعدد الموضوعى قد فقدت وحدتها العضوية ، أما إذا فصلنا القسم الغزلى عن قسم المدح ، فإننا نستطيع أن نقول إنه مشتمل على الوحدة العضوية ، ذلك لأن أجزاءه مترابطة وأبياته متلاصقة وصوره الشعرية متلاحمة، لكن اقتران المدح بالغزل فى هذه القصيدة قد أضعف الوحدة العضـــوية ضعفاً ظاهراً وجعلها ليست بذات وحدة عضوية .

العاطفـــة :

إذا نظرنا إلى قصيدة الحصرى التى شرحناها آنفاً نجدها قد أوتيت حظاً من صدق التجربة الشعرية وقوة العاطفة وحـــرارة الانفعال ، ورقة الإحساس ، وكان ذلك كله نتيجة لتأثر الشاعر بموضوعه تأثراً قوياً حياً وصادقاً ، وقوة العاطفة مع صدق التجربة يقودان إلى الخيال أو التصوير فى العمل الفنى ، وهذا كله يحقق للأدب فائدته المرجوة وهى إحداث الانفعال فى نفوس القراء أو السامعين .

ثانيا : دالية شوقى

تعريف بالشاعر : أحمد شوقى - (١٨٦٩ — ١٩٣٢ م)

نسبه:

هو أحمد شوقى بن على شوقى ، وينتمى شوقى إلى أسرة مختلفة الأصول والأعراق مابين عربية ، وتركية ، ويونانية ، وجركسية ، فجده لأبيه تركى، يمتد نسبه إلى الأكراد فالعرب واسمه : أحمد شوقى بك ، وعنه أخذ شاعرنا الاسم واللقب ، وجده لأمه تركى - أيضاً - واسمه : أحمد بك حليم النجدى ، نسبة إلى قرية «النجدة» من قرى الأناضول التركية. وجدته لأبيه جركسية ، وجدته لأمه يونانية .

تلك هى الأصول التى ينتمى إليها شوقى ، وبسببها يقول : إنى عربى تركى ، يونانى ، جركسى .

تمهيد : الغزل عند شوقى :

يهمنا هنا - ونحن بصدد دراسة لإحدى قصائد شوقى الغزلية ، وهى داليته التى مطلعها :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

— يهمنا أن نتعرف على ملامح فن الغزل عنده .

ونقول : إن (شوقى) كان يمارس نوعين من الغزل أحدهما : غزل فنى تقليدى والآخر: ذاتى حقيقى، فالأول كان يبدأ به قصائده على عادة القدماء ، ويتخذه قنطرة للوصول إلى الغرض الأصلى منها ، كما كان القدماء يفعلون ، والآخر كان يقصد به الغزل نفسه ، وترجمة شعوره ووجدانه ، وتصوير مايعتمل فى نفسه من عواطف مشبوبة وأحاسيس متقدة .

وهو - فى النوع الأول - يحاكى القدماء فى طريقتهم ، وأوصافهم الغزلية والميل إلى تصوير الجمال الحسى ، فالمعشوق عندهم غزال نافر ، قمرى الوجه ، ليلى الشعر ، لؤلؤى الثنايا ، أهيف القوام . ميال الأعطاف ، ساحر النظرات إلى غير ذلك من الأوصاف التى نعتوا بها معشوقاتهم ... والعاشق ناحل الجسم ساهر الجفن ، دائم الفكر يتمنى رؤية الحبيب ، أو زورة خياله ، يراقبه العذال ، ويسىء إليه الوشاة ، وهو بين هؤلاء وهؤلاء محترق بنار البعد ، معذب بالصد . معرض للهلاك .

وشوقى - كغيره من القدماء - يستعمل فى غزله ألفاظاً مرددة ، وتشبيهات معادة ، ومعانى مبتذلة ، كما أن العاطفة تبدو باردة أو مفقودة ، والإنصاف يقتضى أن نقول: إن عاطفة شوقى كانت تذكو حيناً ، وتخبو أحيانا كثيرة...

ونأخذ على شوقى مجاراته فى غزله للشعراء الأقدمين ومحاكاته لهم فى تشبيهاتهم وصورهم وألفاظهم ، فما لشوقى وهؤلاء وحياته غير حياتهـــم ، فأولئك القدماء عاشوا عيشة بدوية لاحظ لها من حضارة أو رفاهية، وشوقى عاش حياة حضرية مترفة مع البعد الزمنى السحيق بينه وبينهم ؟!

اسمع إليه ، فى مطلع قصيـــدة يستقبل بها (والدة الخديو عباس) التى اشتهرت إذ ذاك بأم المحسنين ، حين عودتها من تركية :

ارفعى الستر وحيى بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفى الهودج هينا ساعة نقتبس من نور أم المحسنين

فأى هودج كانت تركبه أم المحسنين ، ربيبة النعمة الغامرة ، والترف البالغ ؟ وأين الهودج من أفخم السيارات التى استقبلتها يوم عودتها فى الإسكندرية والقاهرة ؟

وقوله بعد أبيات :

خطر الســـتر فكبرنا كما خطر المصحف بين التابعين

وحدوناه إلى محـــرابه وأنخناه لدى الخدر الكنين

فما معنى الحداء والإناخة فى موكب ليس فيه ، ولا دواب للركوب ، وإنما فيه سيارات من أفخم السيارات الحديثة حينذاك ؟

هذا بالإضافة إلى كثير من الألفاظ الغزلية التى كان الشعراء الأقدمون يستعملونها ، كالريم ، والبان ، والعلم ... فى قصيدته (نهج البردة) يقول مطلعها :

ريم على القاع بين البان والعـــلم أحل سـفك دمى فى الأشهر الحرم

بل إنه ليجارى القدماء فى افتتاح القصيدة ببكاء الديار ، يقول فى مطلع إحدى قصائده :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمـــعى لو أثابا

وقل لحقه العـبرات تجرى وإن كانت سواد القلب ذابا

ولكن يبدو أن (شوقى) قد تدارك ذلك وأخذ يرجع عنه رويدا رويدا ، فنراه فى النوع الثانى من غزله لا يستهل به المطالع - إلا قليلا - كما كان يفعل ، بل يقصر المنظومة على ترجمة شعوره ، وما يجيش فى نفسه من لوعة صادقة فى الحب ، ونفثات غرامية غير مدخولة ، وفى هذا النوع نحس قوة العاطفة وحرارة الوجدان ، وفيضاً روحياً عجيباً ، ونرى (شوقى) قد خفف من الأوصاف والتشبيهات القديمة ، ولم يسرف فى وصف الناحية الحسية الجسدية ، كما كان يفعل الشعراء ، بل يشرك معها الناحية المعنوية ، ويزيد حظها وما يتصل بها ، فيصف الحب وعذابه أو نعيمـــه ، ودلال الحبيب ، وعتابه ، ولقاءه ، وهجره ، ومناجاته ، وكلامه ... فليس الأمر خدا ، ووجهاً ، وقداً ، وثغراً ... كما امتاز هذا النوع من الغزل بأصفى الألفاظ وأرقها ، وأسمى المعـــانى وأحلاها ، وأعف العبارات ، وأنسب البحور والقوافى الشعرية للتغزل .

القصيدة

مضناك جفاه مرقده ... وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه ... مقروح الجفن مسهده
أودى سرقا إلا رمقاً ... يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوهه ... ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه ... ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة ... شجنا فى الدوح تردده
كم مد لطيفك من شرك ... وتأدب لا يتصيده
فمساك بغمض مسعفه ... ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت بيوسفه ... والسورة إنك مفرده
قد ود جمالك أو قبساً ... حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة ... يدها لو تبعث تشهده
جحدت عيناك زكى دمى ... أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودى إذ رمتا ... فأشرت لخدك أشهده
وهممت بجيدك أشركه ... فأبى واستكبر أصيده
وهززت قوامك أعطفه ... فنبا وتمنع أملده
سبب لرضاك أمهده ... ما بال الخصر يعقده
بينى فى الحب وبينك ما ... لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى ... باب السلوان وأوصده
ويقول : تكاد تجن به ... فأقول : وأوشك أعبده

مولای وروحی فی یده قد ضیعها سلمت یده
ناقوس القلب یدق له وحنایا الأضلع معبده
حسادی فیه أعذرهم وأحق بعذری حسده
قسما بثنایا لؤلؤها قسم الیاقوت منضده
ورضاب یوعد کوثره مقتول العشق ومشهده
وبخال کاد یحج له لو کان یقبل أسوده
وقوام یروی الغصن له نسبا والرمح یفنده
وبخصر أوهن من جلدی وعوادی الهجر تبدده
ما خنت هواك ولا خطرت سلوی بالقلب تبرده

دراسة وتحليل

تعد هذه القصيدة من الغرر الحسان فى شعر شوقى الغزلى ، لما امتازت به من غنائية باهرة و (موسيقية) ساحرة ، شدت بهما (الموسيقيين) فعزفوا على كلماتها الفريدة لحنا شجيا ، ظالما تغنوا به فى سماء (الموسيقا) العربية .

والقصيدة هذه قد وقعت فى ثمانية وعشرين بيتا ، سيقت كلها فى الغزل مخالفا بها شوقى طريقته الأولى فى الغزل ، والتى تعتمد على جعل الغزل مقدمة تقليدية فى قصائده التى ينظمها فى المدح ، أو الوصف ، أو فى اجتماعياته ، أو إسلامياته ، من تلك الأغراض التى استولت على الكثير من قصائده . .

وبذلك جعل الغزل غرضاً مقصوداً لذاته ، قصر عليه قصيدته هذه ، وقصائد أخرى جرت مجراها ، ويعد هذا تحولا فى فن شوقى الغزلى ، تحدثنا عنه عند التعريف به فى بداية هذه الدراسة .

ونود أن نقول : إن شوقيا قد عارض بقصيدته هذه قصيدة الحصرى التى مطلعها :

يا ليل الصب متى غده ؟ أقيام الساعة موعده ؟

— عارضه فى القسم الغزلى منها ، والذى بلغ اثنين وعشرين بيتا ، وسوف نعرض لهذه المعارضة بشىء من التفصيل بعد دراستنا لهاتين القصيدتين .

الخيال :

(١ – ٣) فى الأبيات الثلاثة الأولى : بدأ شوقى قصيدته بالحديث عن لوعة المحب وحرقته ، وأرقه وسهره ، وحيرة قلبه وعذابه ، وتقرح أجفانه وبكاء زائريه وترحمهم عليه ، فقد أهلكه الضنى ولم يبق فى جسمه من حياة سوى روح تتردد ونفس يعلو ويهبط .

وشوقى بمطلعه هذا يحاول أن يستعطف قلب حبيبه الذى ازور عنه ، وجفاه وقد استخدم شوقى فى استعطافه هذا كل أساليب الاستمالة التى تجعل حبيبه يدنو منه ويعطف عليه ، من ألفاظ معبرة موحية ، وتراكيب خيالية بارعة .

أما الألفاظ المعبرة الموحية ، فقوله « مضناك » فهذه اللفظة أدق لفظة فى مجال الاستعطاف والاستمالة لما تشتمل عليه من تذكير الحبيب بما فعله بحبيبه من لوعة وضنى وهلاك تجعله أدعى للعطف عليه والشفقة به .

ولفظة (عوده) دلت بوزنها الصرفى على كثرة المترددين عليه والعائدين له وبكائهم وترحمهم عليه ، وهو معنى يريد الشاعر أن يصل إليه ، ليدلل على مدى ما يعانيه من لوعة وأسى جعلته مثار عطف وموضع إشفاق من الناس فما بال الحبيب لا يلين ولا يرق لحاله ؟ وكذلك لفظة (مسهده) تدل على كثرة سهره وسهاده .

والتراكيب الخيالية بادية فى هذا التخيل الجميل ، وهو قوله : « جفاه مرقده ، فالمرقد — وهو مكان الرقاد — قد أضفى عليه الشاعر روحا وحياة ، وجعله يشعر ويحس ، فقد جعله يجفو هذا المحب المضنى ، ويقليه ، والجفاء والقلى لا يكون إلا بين شخصين قد أخطأ أحدهما فى حق الآخر عما كان سببا فى جفائه وقلاه ، ولكن ما الخطأ الذى ارتكبه هذا المحب فى

حق المرقد ؟ إنه بعده عنه وتركه ملاصقته بسهره وسهاده ، فكان جزاءه ، أن قلاه المرقد وجفاه ، وقابل صنيعه بالمثل جفاء بجفاء :

فانظر كيف حاول الشاعر أن يعبر عن سهر المحب وأرقه بهذه الصورة البيانية الجميلة .

وتأمل معى — أيها القارىء — قول الشاعر :

أودى حرقا إلا رمقا يبقيه عليك وتنفده

كيف عبر به الشاعر عن لوعة الحب وسموه ، فى صورتين متناقضتين على نحو فذ نادر : صورة المحب المتسامى فى حبه ، والمتهالك فى لوعته والذى أهلك نفسه عذابا ولوعة ، ولم يبق فيه إلا روح تردد بين ضلوعه يحاول أن يبقى عليها من أجل حبيبه لا من أجله هو — وصورة حبيب لا يقدر مشاعر حبيبه ، بل يحاول إفناء روحه الباقية بهجره وجفائه !!

(٤ - ٦) فى البيتين : الرابع والسادس : يصور الشاعر آهاته التى يصعدها أنات حائرة وتنهداته التى يرسلها نارا محرقة معبرة عن قلب مكلوم ، وحب مظلوم ، آهات تستهوى الحمائم وتملك عليها مشاعرها . . . وتنهدات تذيب الصخر وتسيله ! بل إن هذه التنهدات وتلك الآهات لتعلم الحمائم كيف تتأوه وكيف تردد أشجانها على أغصان الأشجار . أما البيت الخامس فجاء مقحما بين هذين البيتين وهو يصور فيه سهره وأرقه ، وهو لذلك صار صديقا للنجم يحادثه ويناجيه ، بل صار صديقا لليل ، لدرجة أن أمره أهم الليل وشغله وأقامه وأقعده !

هذه الأبيات الثلاثة تعد استطرادا وتفصيلا لوصف حالته ولوعته وما يعانيه من شدة الوجد ، وقسوة الحرمان — التى بدأ بها قصيدته ، وذلك إمعانا فى استعطاف قلب الحبيب ، ذلك الحبيب القاسى القلب الذى لم يتأثر بآهات حبيبه وتنهداته التى استهوت الطيور ، وأذابت الصخر وعلمت الحمائم

كيف تأوه شجنا فوق أغصانها ... تلك الآهات والتنهدات التى جعلت الطبيعة — ممثلة فى النجم والميل — تعطف عليه وترق لحاله !

وفى هذه الأبيات صور شعرية غاية فى الجمال والتصوير ، انظر إلى هذه الصور :

— يستهوى الورق تأوهه !
— يذيب الصخر تنهده !
— يناجى النجم ويتبعه !
— يقيم الليل ويقعده !
— ويعلم كل مطوقة شجنا فى الدوح تردده !

فى الصورة الأولى ، أضفى الشاعر على الورق سمات الإحساس والإدراك ، فجعلها تشعر بأنين المحب ، وتنهداته ، بل جعل هذه الآهات تستهويها وتملك عليها لبها !

وفى الصورة الثانية خلع الشاعر على الصخر — أيضاً — صفات الإنسان من التأثر والانفعال ، والإحساس بآلام الغير ، وذلك حين جعله يذوب من هول تنهدات المحب وزفراته !

وفى الصورة الثالثة عقد الشاعر ألفة وصحبة بين المحب وبين النجم أوحى بها التعبير بلفظ (ناجى) إذ المناجاة لا تكون إلا بين حبيبين أو صديقين فجعله يناجى النجم ويبثه شكواه . كما يناجى الإنسان صديقه ويبثه شكواه ، بل إن المحب ليتبع النجم أينما كان ، وذلك تدليلا على ما بينهما من صداقة !

وفى الصورة الرابعة ، نجد الشاعر قد جعل الليل صديقاً للمحب ، لذا نجد الليل يعطف على صاحبه ويرق لحاله ، ويشغله أمره وحاله !

أما الصورة الخامسة ، ففيها نجد الشاعر قد جعل الحمائم تشعر وتدرك وذلك حين جعلها تقلد الشاعر فى آهاته وتنهداته ، حين تترنم وتشدو بأشجانها فوق الأغصان !

والمعانى التى يريد أن يعبر عنها الشاعر من خلال الصور : الأولى والثانية والخامسة هى : أن مايعانيه الشاعر من آلام الحب ، ولوعة الصبابة ، شىء فوق مايتصوره الإنسان ، وفوق مقدوره ، لدرجة أن آهاته تملك على الورق لها ، وتنهداته المحرقة تذيب الصخر العاتى ، وأناته المعبرة عن الحزن تتخذها الحمائم على الأشجار لحناً تشدو به !

أما الصورتان الثالثة والرابعة ، فهما تعبران عن مدى سهر الحبيب وأرقه ، وكثرة سهاده ، لما يعانيه من آلام الحب المبرحة لدرجة أنه صار صديقا للنجم ، يناجيه ويتبعه ، وخليلا لليل حتى صار أمره وحاله شيئا يشغل الميل ويقلقه وفرق كبير بين أن يعبر الشاعر عن هذه المعانى حقائق مجردة ، وبين أن يودعها فى هذه اللوحات الحية التى تنبض بالحركة والحياة .

(٧ - ٨) فى هذين البيتين : السابع والثامن يصور الشاعر مدى لهفته على رؤية حبيبه ، وقدر حرصه عليها ؛ لذا فهو يبسط الأسباب الموصلة إليه ، والأشراك الموقعة به ، بل يكثر من هذه وتلك ، وما هذه الأسباب وتلك الأشراك إلا إكثاره من النوم على طيفه يزوره ، أو يلم به ، فيسعد برؤياه ، ولكن أشراكه لم تجد ، إذ ضن عليه الطيف بهذه الرؤيا ، ولذلك نجده يتمنى من حبيبه أن يسعفه - مناما - بطيفه ، ويسعده برؤياه .

وانظر إلى محاولات المحب الكثيرة هذه ، كيف عبر عنها بقوله : « كم مد لطيفك من شرك ... » ونحن نعلم أن « كم » الخبرية تفيد التكثير .

إلا أننا نلاحظ أن الشاعر قد خانه التوفيق فى التعبير عن عدم زيارة الطيف له مناما وبدلا من أن يقول « تأدب لا يتصيده » يقول - مثلا - أبى تصيده - أو - عز تصيده ، لأن عدم مجىء الطيف ليس بسبب أدب المحب - بدليل تمنيه رؤياه - ولكن لأن تصيده عزيز ، أو لأن الطيف ضن بزيارته .

(٩ — ١١) — وفى هذه الأبيات : التاسع والعاشر والحادى عشر ، يعبر الشاعر عن جمال الحبيب ، ويصور حسنه ، فيقسم بيوسف وجماله ، وبسورته — سورة يوسف — أن حبيبه مثال للجمال الأوحد ، والحسن المفرد وألا نظير له فيهما لدرجة أن جماله هذا — أو جزءا منه — يتمناه حور الجنة ، وغلمانها المخلدون . بل إن صواحب يوسف ليتمنين أن يبعثن من قبورهن ليشاهدنه .

وقد استخدم الشاعر فى التعبير عن هذا الجمال كل الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك ...

فهو يقسم — أولا — بيوسف ، ويوسف ، من يوسف ؟ إنه فتنة الجمال ، وقمة الحسن ...

ثم يقسم — ثانياً — بالقرآن : بسورة يوسف : سورة صاحب الحسن والجمال والفتنة ، إنه يقسم بصاحب الجمال وسورته ، على ماذا ؟ على أن حبيبه هو الأوحد فى الجمال ، والمفرد فى الحسن .

وهو — بعد هذا القسم المتعدد — يزيد الصورة وضوحاً والمعنى تأكيداً ، فحور الجنة وغلمانها يتمنون أن يكونوا على هذا النحو من جمال الحبيب أو حائزين على مسحة منه ! ...

وفى هذه المعنى نرى الشاعر يترقى فى التدليل على جمال الحبيب، فحور الجنة — وهن من هن جمالا وسحراً — وغلمانها المخلدون — وهم من هم فتنة وجمالا — يتمنون جمال الحبيب ، قد ود جمالك ... » — وتلك درجة .

ولا يكتفى الشاعر بهذه الدرجة دليلا على جمال حبيبه ، بل يصعد بنا درجة أخرى ، فيقول : إن هؤلاء إن لم يسعفهم التمنى بجمال مثل جمال الحبيب ، ولم يحظوا به ، فهم يتمنون مسحة منه — « ... أو قبسا » ، وتلك درجة ثانية ، وما أرق شوقى فى وصفه هذا ، فإن الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصوف ، وهل العبادة إلا وصف المعبود بالتفرد والجلال .

ثم يستطرد فى تزيين هذا المعنى فيقول : إن اللاتى قطعن أيديهن فتنة بجمال يوسف يتمنين أن يبعثن كى يشاهدن جمال الحبيب الساحر ! وتلك درجة ثالثة .

(١٢ — ١٦) — وفى هذه الأبيات : الثانى عشر إلى السادس عشر ، يستطرد الشاعر فى الحديث عن جمال حبيبه ، فيقول : إن عينيك قد رمتانى بسهم فأصابت منى مقتلا ، فأنا شهيدهما ، والعجيب أن عينيك النجلاوين تنكران قتلى وسفك دمى البرىء ؟ ، وإذا أنكرت عيناك ، فهل ينكر خدك ؟! إن خدك لا يستطيع أن ينكر لأن الحمرة التى به إن هى إلا أثر من دمائى التى سفكت ! ولم يكن أمامىَ من شهود - إذ رمتنى عيناك - سوى خدك الأحمر الجميل ! .

وقد حاولت أن أعزز هذه الشهادة ، فقصدت جيدك أشركه فيها ، ولكنه ازور عنى إباء واستكبارا ، وحاولت ذلك - أيضاً - مع قوامك الجميل ، ولكنه تأبى وامتنع ، حتى خصرك ، هو الآخر يعقد الأسباب التى أمهد بها لرضاك !

فى هذا المقطع يريد الشاعر أن يصف حبيبه بجمال عينيه وجنايتهما عليه ، وحمرة خديه ، وحسن قده ، وجمال عنقه ، ودقة خصره . ولكن الشاعر لم يعبر عن هذه المعانى تعبيراً مباشراً ، وإنما عبر عنها من خلال صور شعرية رائعة ، وأساليب خيالية ساحرة .

فى البيت الأول منها صورتان شعريتان هما :

— جحدت عيناك زكى دمى ...

— أكذلك خدك يجحده .

ففى الصورة الأولى جعل الشاعر عينى الحبيب تقتله بفنان لحظهما ، وساحر جمالهما ، وكأن لحظها سيف قاتل طعنه فى قلبه فسفك دمه ، ولا يقتصر الشاعر فى رسم هذه الصورة عند هذا الحد ، بل يجعل العينين تنكران هذا القتل ، وتجحدان سفك دمه !! ، وبهذا القتل والإنكار اللذين أضفاهما الشاعر على العينين ، خلع عليهما روحا وحياة ، فما نكاد نقرأ هذه الصورة الشعرية الرائعة حتى نخال أننا أمام قاتل منكر ! .

وفى الصورة الثانية يقف الشاعر أمام خد الحبيب مستفهما منكرا ـ بل خاشيا ـ أن يقف منه الخد موقف الجحود والنكران فلا يعترف هو الآخر بجناية العينين ! وكأن الشاعر بهذا الصنيع يحذر الخد أن ينكر ، وينبهه ـ قبل أن يفكر فى ذلك ـ أن يعترف بالحقيقة ، وهذه الصورة ترسم فى خواطرنا مشهداً حياً ، مشهد رجل اعتدى عليه وأنكر المعتدى وجحد بعدوانه ، ولم يجد المعتدى عليه سوى رجل واحد ، هو — وحده — الذى يستطيع أن يشهد بالواقعة ، فيسرع المعتدى عليه بحفز هذا الرجل على الشهادة الصادقة قبل أن يفكر هو الآخر فى إنكارها وجحودها باستفهام إنكارى كأنه يحذره فيقول ـ مثلا ـ « أو تنكر أنت أيضاً ؟ » وكأنه يقول له لا تنكر ! هذا المشهد ارتسم فى خواطرنا حينما سمعنا قول الشاعر :

« أكذلك خدك يجحده ؟ » .

والبيت الثالث يمثل صورة شعرية رائعة : ـ

وهممت بجيدك أشركه فأبى واستكبر أصيده

الشاعر ـ هنا ـ يخلع على جيد الحبيب روحا وحياة ، حين عزم على أن يشركه فى الشهادة محاولا دعم دعواه أمام حبيبه الذى سفك دمه ، ولكن الجيد يرفض ويستكبر ويميل عنه كبرا وغرورا ، هذه الصورة الخيالية تذكرنا بإنسان طمع فى شهادة شخص لصالح دعواه ؟ فإذا بهذا الشخص يخيب ظنه ، ويترك نصرته ! بل يشيح بوجهه عنه !

أما البيت الرابع منها ، ففيـــه ـ أيضاً ـ صورة شعرية مماثلة للصورة السابقة :

وهززت قوامك أعطفه فنبا وتمنع أملده

الشاعر ـ هنا ـ مازال يبحث عن الشهود الذين يؤيدون قضيته أمام حبيبه ومازال يستعطفهم حتى يشهدوا معه ، فقد حاول — فى الصور السابقة

أن يشهد الخد ، ثم ذهب ليشرك الجيد ، ولكنه أبى واستكبر . وذهب — فى هذه الصورة — إلى القوام كى يكون شاهدا ثانيا مع الخد . ولكن القوام أعرض عنه وتمنع !

اقرأ هذا البيت . ثم انظر إلى هذا الخيال الذى أبدعته عبقرية الشاعر حين أوهمنا وخيل إلينا أنه ذهب إلى القوام مستعطفا أن يشهد معه ، ولكن القوام يرفض ، ثم انظر مرة ثانية حين خيل إلينا أنه حاول هزه وتحريكه كى يرق ويعطف ، كل ذلك إمعانا فى التشخيص والتجسيم ويخيل إلى وأنا انظر إلى هذه الصورة أننى أمام رجل يمسك بثياب رجل آخر محاولا استعطافه فى أمر يريده منه وهو يرفض ويمتنع . ولعل هذه العبارة « وهززت قوامك أعطفه » هى التى ضاعفت من جمال الصورة بالإضافه إلى هذه العبـــارة فى الشطر الثانى وهى « فنبا وتمنع أملده »

أما البيت الخامس ففيه صورة شعرية لا تقل جمالا عن الصور السابقة:

سبب لرضاك أمهده ما بال الخصر يعقده

ذهب الشاعر — هذه المرة وفى هذه الصورة — إلى الخصر كما ذهب إلى القوام والجيد والخد وهو فى ذهابه لا يقصد إحراج حبيبه ولا كشف جريرته وإنما يقصد أن يكشف له أنه ظالمه وهو — أيضا — لا يريد محاسبته بل يريد أن يتلمس رضاه ولكن الخصر لا يستجيب له موصداً - بذلك - الأبواب الموصلة لرضا حبيبه

اقرأ هذا البيت وتخيل معى هذه الصورة الجميلة تجد نفسك أمام انسان حيران سلك كل السبل الموصلة إلى قلب حبيبه ولكنه لم يظفر بشىء ولم يعد أمامه من سبيل سوى رجل من أقرباء الحبيب ظنه الوحيد والأخير القادر

على فتح أبواب الرضا إلى قلب حبيبه ، فإذا بهذا الرجل . يقفل أمامه الأبواب ويعقد الأمور لديه ...

لقد تخيلنا هذه الصورة و نحن نقرأ هذا البيت ، حين جعل الشاعر الخصر يعقد الأسباب ويقفل الأبواب وقد جاءه الشاعر ملتمسا عنده المعونة والمساعدة لدى حبيبه ! !

(١٧ - ١٩) - فى الأبيات : السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر : يتحدث الشاعر عن موقف الوشاة واللائمين من حبه لحبيبه هذا ، ويبين أن الحب الذى يربط بينهما من القوة بحيث لا يستطيع الوشاة أن يفسدوه ، وكلمة (ما) فى قوله :

بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده

تدل على مدى عظم هذا الحب ومقدار قوته لدرجة أن اللائمين له على هذا الحب الذى أضناه يفتحون أمامه أبواب النسيان ولكنه يوصدها لأنه لا يريد أن ينسى حبيبه ولا أن يسلوه فيعجبون - لذلك - من أمره ويقولون: توشك أن تجن به فيقول لهم : بل أوشك أن أعبده !

(٢٠ - ٢٢) - فى الأبيات : العشرين والواحـــد والعشرين والثانى والعشرين : يتحدث الشاعر عن لوعة حبه وإشفاقه على حبيبه وحنوه عليه حتى فى حالة ظلمه وعدوانه ! لأنه لا يحب حبيبه فقط بل يعبده ؛ فقلبه يدق ودقاته أجراس بيعة ، تدق للصلاة له ، وحنايا ضلوعه معبد لهذه الصلاة !

ولا عجب - إذن - أن يحسدنى الناس فى حبيبى هذا ولذلك فأنا أعذرهم فى حسدهم هذا . بل أحق الناس بهذا العذر حساد حبيبى لأنهم معذورون !

وهنا صورة جميلة تخيل الشاعر فيها حبيبه الذى يحبه إلها معبودا ؛ وذلك

لفرط حبه وشدة وجده ، ولذلك استخدم الشاعر فى رسم هذه الصـــورة الألفاظ التى تناسب هذا المعنى مثل :

« مولاى — روحى فى يده — ناقوس القلب يدق له — حنايا الأضلع معبده » .

(٢٣ — ٢٨) — والأبيات من الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين يتحدث فيها عن حرصه على الحب ، وشدة تعلقه بحبيبه وأنه لا يمكن أن يسلوه ، مهما جنى عليه هذا الحب ، ويؤكد الشاعر هذا الحب وحرصه عليه ، وأنه لا يسلى حبيبه — يؤكد ذلك بأقسام وأيمان متعددة ، فيقسم الشاعر بأسنان الحبيب البيضاء وريقه العذب وبخاله الأسود الجميل وقوامه المياس وبخصره الأهيف .

وقد استطاع الشاعر من خلال هذه الأقسام والأيمان أن يكشف عن جمال الحبيب ... فأسنانها البيضاء لؤلؤ يتلألأ ورضابها كوثر يوعد به قتـــلى العشق وشهداؤه ! ! وكأن رضابها كوثر الجنة العظيم ونهرها الفياض الذى يوعد به المتقون ! ، وخالها الأسود الجميل يكاد يحج له ويقصده لو كان يقبل كما يقبل الحجر الأسود ! ، وقوامها دقيق دقة الغصن والرمح ، وخصرها دقيق رقيق !

والشاعر فى كشفه عن محاسن الحبيب ووجوه جماله المتعددة بتعدد أجزائه — يستخدم العبارات والأساليب البيانية والخيالية والبديعية التى تكسب الصور الشعرية جمالا وقوة .

فى قوله « قسما بثنايا لؤلؤها » تشبيه ضمنى فقد شبه فيه أسنان الحبيبة (ثنايا) باللؤلؤ .

وفى قوله « ورضاب يوعد كوثره » استعارة حيث شبه الشاعر رضاب الحبيب العذب بماء يسيل من نهر الجنة العظيم واستعار له — بعـــد تناسى التشبيه والادعاء بأن المشبه — وهو الرضاب — فرد من أفراد المشبه به — وهو

ماء نهر الجنة - استعار له اللفظ الدال على نهر الجنة (وهو الكوثر) بصفة الماء الذى يسيل منه جزءاً منه ؛ له (أى للرضاب) ثم أضافه إليه من إضافة الجزء الى الكل -

وفى قوله : -

وبخال كاد يحج له ...

استعارة جميلة على غرار الاستعارة السابقة ، وفى قوله :

« ... لو كان يقبل أسوده » تورية جميلة ، ولا يخفى على الفطن ما الاستعارة من تخييل وتجسيم ، وما تكسبه التورية من جمال فى المعنى .

وفى قوله : -

وقوام يروى الغصن له نسباً والرمح يفنده

صورة شعرية رائعة : لقد تخيل الشاعر فيها معركة كلامية قائمة وجدلا حاداً بين الغصن والرمح — وكلاهما مشهور بالدقة والاستواء — فكل يدعى أنه ينسب إلى قوام الحبيب — أى أنه دقيق مستو مثله — فالغصن يروى نسبه إلى القوام ؛ ولكن الرمح يكذبه ؛ حتى يظل — هو — وحده المنسوب إليه!! فانظر كيف وصف الشاعر قوام الحبيب بالدقة والاستواء، وكيف وصل إلى هذا الوصف ؟ لقد وصل إليه عن طريق هذه الصورة الشعرية الرائعة التى جعلت البيت ينبض بالحركة والحياة ... إنه الخيال المبدع المصور !

المعانى والأفكار :

وقد حفلت هذه القصيدة بالمعانى والأفكار التى يستوجبها فن الغزل ، ويتطلبها شعره ؛ كالحديث عن لوعة الحب وطيف خيال الحبيب ، وجماله ،

وجناية عينه ، وحسن قده وجيده ودقة خصره ... كما تحدث عن صبره على الوشاة وتفدية الحبيب ، والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ...

وقد وفق الشاعر فى التعبير عن هذه المعانى توفيقاً عظيما يشهد له بالبراعة والتفوق ، وأنه أوتى حظاً من دقة الحس ، ورهافة الشعور ، وصدق التجربة ، ينسحب هذا التفوق على أبيات القصيدة كلها ، اللهم إلا بعض أبيات بدت ضعيفة فى التعبير عن معناها ، كقوله :

بينى فى الحب وبينك ما لايقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده

إذ لامعنى للتعجب فى البيت الثانى .

وكذلك قوله :-

وبخصر أوهن من جلدى وعوادى الهجر تبدده

وهى مبالغة مردودة ، لأن الذى يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادى الصدود .

ومما ضعف فيه شوقى فى المعنى قوله :-

وبخال كاد يحج له لو كان يقبل أسوده

إذ لا معنى له .

كما جاءت بعض عبارات قاصرة فى التعبير عن المعنى المراد ، كقوله :-

كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيده

لأن التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحدثنا له هيبة الحسن ، وإن الحسن لمهيب الجناب :

الوحدة العضوية : ـ

أما عن الوحدة العضوية فى القصيدة ، فنستطيع أن نقول : إن الوحدة العضوية فيها بادية ظاهرة ، فالقصيدة كلها وقف على الغزل ، وليست هذه الوحدة وقفا على الغرض العام ، بل تمتد ـ أيضاً ـ لتشمل المعانى الجزئية التى تحتويها الأبيات فأجزاء القصيدة متلاحمة ، وأبياتها متصلة وصورها الشعرية مترابطة ، ولا تحس بينها انفصالا ، ولا تفككا ؛ اللهم إلا ما كان من فصله بين معنيين متلازمين بمعنى آخر لاصلة له بهما ؛ وذلك قوله :

يستهوى الورق تأوهه ويذيب الصخر تنهده
ويعلم كل مطوقة شجناً فى الدوح تردده

فقد فصل الشاعر بين البيتين ـ وهما متلازمان معنى ـ بمعنى آخر لاصلة له بهما ؛ فى بيته هذا :

ويناجى النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده

مما أدى إلى عدم تسلسل معانيه وارتباطها واتصالها ؛ مما أدى ـ بالتالى ـ إلى ضعف وحدة القصيدة .

العاطفة :

والعاطفة فى هذه القصيدة قوية وصادقة تعبر عن إحساس الشاعر وانفعالاته ، ورؤيته الصادقة ؛ مما كان له أكبر الأثر فى خيال الشاعر واستخدامه لكثير من الصور الشعرية التى حلقت فى سماء هذه القصيدة معبرة عن المعانى التى استهدفها الشاعر .

ولكن محاكاة شوقى ـ فى قصيدته هذه ـ للحصرى ـ فى قصيدته ؛ التى مطلعها : ـ

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده؟

... لكن محاكاة شوقى هذه جعلت عاطفته — أحيانا — ضعيفة ياهتة، يمتزج فيها الشعور بالعقل ؛ والفطرة بالصنعة ، والإلهام بالتقليد ... مما كان له أثره على صوره الشعرية وتراكيبه الخيالية .

(الموازنة بين القصيدتين ، فى العدد
القـادم إن شاء الله)